

## تعاليم المسيح وتعاليم البشر

القديس لوقا رئيس أساقفة سيمفروبول وسائر القرم  
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

كما تتذكرون، في الأحد الأول من الصوم الكبير احتفلت الكنيسة المقدسة بانتصارها بالاعتراف بالأرثوذكسية من قبل سبعة مجامع مسكونية، وها هي في الأحد الثاني تكرم ذكرى القديس غريغوريوس بالاماس، المدافع العظيم عن الأرثوذكسية.

عاش في القرن الرابع عشر، أي بعد ستة قرون تقريباً من آخر مجمع مسكوني. تلقى تعليماً شاملاً، وكان مقرّباً من الإمبراطور البيزنطي وخدم معه، لكنه ترك بعد ذلك حياة البلاط واعتزل في جبل أثوس، لأن نفسه سعت إلى شركة دائمة مع الله لا تنفصم. وفي أيامه، نشأ تجديف على الرهبنة، وخاصة على رهبان أثوس، الذين كان يُستَهزأ بهم لأنهم كرسوا حياتهم كلها فقط لخدمة الله، متأملين ومصلّين.

شجب القديس غريغوريوس هؤلاء المنتقدين بقوة كبيرة ووقف مُدافعاً عن الرهبنة الأرثوذكسية. في الوقت نفسه قام المهرطق برلعام الذي علّم بشكل خالٍ من التقوى أن الرب يسوع المسيح، في تجليه العظيم على جبل ثابور، أشرق لا بنور إلهي، بل بنور أرضي بسيط. وقد أدان القديس غريغوريوس هذه الهرطقة وأكد على عقيدة المصدر الإلهي لنور ثابور.

في يوم عيد هذا القديس العظيم، مثل كل القديسين، تسمعون كلام المسيح في القراءة الإنجيلية: "أَلْحَقَّ أَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الَّذِي لَا يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ إِلَى حَظِيرَةِ الْخِرَافِ، بَلْ يَطَّلُعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَذَلِكَ سَارِقٌ وَلاَصٌّ. وَأَمَّا الَّذِي يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ فَهُوَ رَاعِي الْخِرَافِ" (يوحنا ١٠: ١-٢).

هنا يُشَبَّه جميع المعلمين الكذبة والهرطقة باللصوص وقطاع الطرق الذين لا يريدون الدخول بتواضع إلى الإيمان المقدس من باب الأرثوذكسية، بل يجتهدون للتسلق من مكان آخر. ولكن هنالك باباً مقدساً شرعياً واحداً فقط إلى التعليم الإلهي، ولدينا معلم واحد - المسيح (انظر متى ٢٣: ٨)، ويجب علينا أن نتبعه وحده، وليس أي شخص آخر. " ٩ أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعَى." (يوحنا ١٠: ٩).

عند هذا الباب عيّن الربُّ الرسل القديسين حراساً لملكوت السماوات، وبعد ذلك نال العديد من الرعاة الصالحين رسامات لاحقة؛ جميعهم يعلمون الخراف الصالحة، رعية المسيح، لتسمع صوت المعلم والراعي الوحيد، لتتبع المسيح.

لقد كان وما يزال هناك العديد من القادة الذين يختارهم الجنس البشري لنفسه، والعديد من المعلمين الذين يحدّدون مسارات الحياة المختلفة. لكن الرب يسوع المسيح يوصينا نحن المسيحيين أن نتبعه وحده، هو الراعي الصالح الذي يضع نفسه عن خرافه (راجع يوحنا ١٠: ١١).

ماذا يعلّم جميع قادة البشر، وكيف تختلف تعاليمهم عن تعاليم الرب يسوع المسيح؟ إن جميع التعاليم الإنسانية تهدف إلى تحسين حياتنا الاجتماعية والسياسية، وهي تقريباً لا تتحدث إلا عن كيفية تنظيم الحياة من الخارج، وقوانين الدولة التي يجب إنشاؤها، وكيفية تحقيق الشكل الأمثل للحكومة. قدرٌ كبيرٌ من الحكمة والعظمة والفائدة يصير معروفاً لدينا من هذه التعاليم البشرية. إننا ننحني أمام الأفضل والأجدر، أمام الأكثر عدلاً من بين هذه التعاليم.

ولكن لماذا لا نزال نتبع قائداً واحداً، ربنا يسوع المسيح؟ لماذا نضع تعليمه المقدس فوق كل التعاليم السياسية والاجتماعية في العالم، حتى فوق تلك الأكثر عدلاً بينها؟ هذا ما ينبغي فهمه. قبلَ الرب يسوع المسيح، كان العالم غريباً جداً عمّا علّمه، ولم يفكر على الإطلاق في ما اعتبره الأهم والضروري للناس، ولم يفكر إلا في الخارجي. كان العالم القديم مقتنعاً بأن قوانين الدولة العادلة وحدها هي كل ما يلزم للقضاء على الشر على الأرض؛ وأن العالم الجديد يحلم بالمساواة الاجتماعية. لكن راعينا الصالح تحدث عن شيء مختلف تماماً.

أنتم تعلمون أنه أثناء صومه لأربعين يوماً في البرية، بدأ الشيطان يجربه. فأخذه إلى جبل عال وأراه جميع ممالك الأرض وقال: "وأعطيك سلطاناً على هذه الممالك ومجدها... إن سجدت لي" (لوقا ٤: ٦-٧). فأجاب الرب: "أذهب عني يا شيطان لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد" (لوقا ٤: ٨). لقد رفض الرب أن تكون له سلطة سياسية واجتماعية، ولم يفكر في الإصلاحات الاجتماعية. ومن ثم رفض هذا السلطان في مناسبات أخرى، لأنه عندما سأله الناس أن يحكم في قضاياهم، تجنّب ذلك قائلاً: "من أقامني قاضياً بينكم؟" (لوقا ١٢: ١٤). وعندما ظهر أمام بيلاطس، قبل آلامه الرهيبة على الجلجلة، وسأله بيلاطس: "هل أنت ملك؟" أجاب: "نعم أنا ملك ولكن مملكتي ليست من هذا العالم" (يوحنا ١٨: ٣٣-٣٦).

إن هذا مهم بالنسبة لنا - أن المسيح هو قائد مملكة ليست من هذا العالم، فيما كل رؤساء البشر هم قادة مملكة هذا العالم.

ما هو الفرق الجوهرى بين تعاليم المسيح وكل التعاليم البشرية؟ الفرق هو أن المسيح علّمنا عن الملكوت الذي في داخلنا. علّمنا أن نصغي لصوت القلب: "لأنه من الدّاخِلِ، مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، تَخْرُجُ الأَفْكَارُ الشَّرِّيرَةُ: زِنَى، فِسْقٌ، قَتْلٌ، سِرْقَةٌ، طَمَعٌ، حُبُّثٌ، مَكْرٌ، عَهَاةٌ، عَيْنٌ شَرِّيرَةٌ، تَجْدِيفٌ، كِبْرِيَاءٌ، جَهْلٌ." (مرقس ٧: ٢١-٢٢). ستجدون نفس الفكرة في إنجيل لوقا: "الإنسانُ الصّالِحُ مِنْ كَثْرَةِ قَلْبِهِ الصّالِحِ يُخْرِجُ الصّالِحَ، وَالإنسانُ الشَّرِّيرُ مِنْ كَثْرَةِ قَلْبِهِ الشَّرِّيرِ يُخْرِجُ الشَّرَّ. فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ القَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ" (لوقا ٦: ٤٥).

في حياتنا الروحية، وبالتالي في كل الحياة الخارجية، التي هي على اتصال وثيق بالحياة الروحية، يملك قلبنا ويهيمن على ذهننا وإرادتنا وتطلعاتنا. نحن نفكر كما يريد القلب، ونصدّق ما يحبه القلب، ونوجّه إرادتنا وفق تطلعات القلب. إن الإحساس، وجهازه القلب، يهيمن على كل تفكيرنا وإيماننا ومعرفتنا، على مجمل نظرتنا للعالم، وعلى جميع التطلعات الاجتماعية والسياسية.

كما يكون قلبنا، هكذا يكون نشاطنا. إذا كان القلب نقياً ومقدساً ومشبعاً بالمحبة المتقدمة للرب يسوع المسيح، فإن كل الأفعال، وكل الأفكار، وجميع وجهات النظر الاجتماعية والسياسية، وكل فلسفتنا ستكون مشبعة بهذا الشعور، بهذه التوجهات المقدسة الصادرة عن القلب. ومن ثمّ فإننا، من كنز قلبنا الصالح، سنعطي ثماراً جيدة في جميع أنشطتنا، وقبل كل شيء، في الحياة اليومية وفي التواصل مع الناس من حولنا. وإذا ساد الشر المظلم في القلب، فبغض النظر عن مدى كمال هيكل المجتمع والدولة، وبغض النظر عن مدى عدالة القوانين المعمول بها، فإن القلب سيفعل الشر. ما من قوانين أو نُظُم اجتماعية قادرة أن تكبح قلب الإنسان.

يسعى الناس إلى معاقبة الشر بالعقوبات القضائية، لكن الشر يستمر، والجرائم لا تتوقف. أنتم تعلمون أنه حتى بوجود البنية الأكثر كمالاً للدولة، هناك العديد من الأشخاص الوضيعين وغير الشرفاء الذين يفعلون الشر وبكل أعمالهم يدمرون كل ما هو صالح، وبتطلعات قلوبهم السوداء يعيقون الدولة ويحرمونها من القوة؛ هناك الكثير من الأشخاص الأنانيين الذين لا يهتمون إلا بأنفسهم، ولا يتوقفون عند سحق كل من يقف في طريق حياتهم. أنتم تعلمون كم يوجد من الأشخاص الفاسدين، ولا توجد قوانين يمكنها أن تجعل جميع الناس أنقياء ولطيفين بحيث لا يعود هناك أشخاص غير شرفاء، ولا أنانيون.

وحده الرب يسوع المسيح يستطيع أن يفعل هذا، لأنه أتنا بتعاليمه الإلهية حول ما ينبغي أن يكون عليه قلبنا، وكيف ينبغي لنا أن نصححه. وبدمه وجسده اللذين تناولهما، يمنحنا القوة لمحاربة الشر ولتنقية قلوبنا. ولهذا السبب فهو القائد القدوس الوحيد بالنسبة لنا، لأن القضاء على الشر لا يمكن أن يتحقق، ولن يتحقق أبداً، بواسطة القادة البشريين. نحن بحاجة إلى النعمة الإلهية، القوة الإلهية لتصحيح قلوب البشر، نحتاج إلى معونة مفعمة بالنعمة للناس في الحرب ضد الشر. كيف لا نحب الرب يسوع المسيح من كل قلوبنا، وهو الذي علّمنا الحقيقة العميقة، ولفت انتباهنا إلى قلوبنا، وأتى بالتعليم الإلهي والمنير عن محبة القريب؟

وتجدر الإشارة إلى أن ما علّمه - المحبة والرحمة والوداعة والتواضع - كان غريباً جداً عن قلوب الوثنيين. لم يكونوا يبجلون الوداعة، بل الكبرياء، واعتبروا أن إعطاء الصدقات للفقراء هو ضعف لا يغتفر. لقد طوّروا العبودية على نطاق واسع، مما أدى إلى إهانة الكرامة الإنسانية؛ لم يعتبروا العبيد أشخاصاً وعاملوهم مثل الماشية. إن كلمات المحبة والوداعة والتواضع والرحمة بدت شاذة وعبثية بينهم. لكن هذه الكلمات ترددت في كل أنحاء العالم في التعليم الإلهي للرب يسوع المسيح واحتلت قلوب البشر تدريجياً. وبدلاً من التفاخر وازدراء الناس كما في السابق، تم ترسيخ الاعتراف بكرامة هذه الصفات بالذات.

لذلك، يجب على كل مسيحي أن يتذكر أنه عليه تطهير قلبه واستئصال الأفكار الشريرة منه والسعي إلى تقديسه. يقول الرسول القديس يعقوب: "طَهِّرُوا قُلُوبَكُمْ يَا ذَوِي الرُّأْيَيْنِ. اكْتَتِبُوا وَنُوحُوا وَابْكُوا. لِيَتَحَوَّلَ ضَجَجُكُمْ إِلَى نَوْحٍ، وَفَرَحُكُمْ إِلَى غَمٍّ. اتَّضِعُوا قُدَّامَ الرَّبِّ فَيَرْفَعَكُمْ" (يعقوب ٤: ٩-١٠).

---

تواضعوا أمام الرب، وتوبوا عمًا يدينس قلوبكم، واملؤوا حياتكم بالرغبة بالمحبة والخير والرحمة، فتحلّ عليكم نعمة الروح القدس. أمين.

Source: St. Luke, Archbishop of Simferopol and All Crimea. Homily for the Second Week of Great Lent: The Teachings of Christ and the Teachings of Men. Translated by John Sanidopoulos.

<https://www.mystagogyresourcecenter.com/2023/03/homily-for-second-week-of-great-lent.html>